كبسولة الأحلام المخبأة

كان هـذا تقليدًا غربيًا تمامًا يشـبه الأفلام؛ هـذا أول ما طرأ على ذهنه وزياد يخبره باحتفال مدرسته بمرور مائة عام على تأسيسها.

«سـيصنعون آلة زمن. كبسـولة لا تُفتح إلا بعد مائـة عام أخرى، في الاحتفالية القادمة لمئوية المدرسة».

كان يحكي بحماس شديد وهو يلهث من الإثارة. تبرق عيناه الصغيرتان، وهو يشير بكفِّه الهشِّ في الهواء، يُكمل بصوت عالٍ: «سيضع كل طلاب المدرسة رسائل وهدايا للطلاب الذين سيفتحونها في الاحتفالية القادمة. سنكتب ونرسم لهم ما نريد».

«وأنت.. ماذا سـتضع؟». ينظر لأبيه باتساع عينيه المتزايد؛ «لا أدري. لم أفكر بعد».

«لتكتب لهم، لتحكِ لهم عنكَ، قم بتعريف نفسك، قم بوضع صورة كبيرة لك وأنت تلوح لهم». يبتسم وهو يسبح بنظره في فراغ الغرفة.

«لتكن الصورة بزيِّ المدرسة الحالي. أخبرهم أنَّكَ تمارس السِّباحة، وكرة السلة. سأعطيكَ صورتكَ وأنتَ في حمام السِّباحة. أتعلم؟.. لو كنتُ مكانكَ لوضعتُ كرة السلة بعد أن أكتب عليها اسمي، وأمنيةً منِّي بفوز فريق المدرسة في كلِّ البطولات». يضحكُ بصوتٍ عالٍ، وهو يصفق بيديه بسعادة وحماس شديدين. «لا تخف. سأشتري لك كرة جديدة». يقولها له وهو يبتسم.

«هل تريدُ أن تضعَ شيئًا أنتَ أيضًا؟»؛ يقترب من أبيه بحماسه المتدفق وهو يسأله. فاجأه السؤال فابتسم وهو يفكر: «لا أدري.. لتقترح لي شيئًا».

يسرح زياد بعينيه وهو يتمتمُ بخفوتٍ قبل أن يعلو صوتهُ: «لتضع قصةً من قصصِكَ. سأكتب لهم وأخبرهم بأنَّكَ كاتب، وأن صورَكَ تظهر في الجرائد».

يبتسم أبيه، فيعلو صوته بفخر: «نعم. لتعطيني قصةً لك وعليها إهداءٌ لهم، وصورةً لكَ أيضًا». تلمع عينه وابتسامته تتزايد حتى تملأ وجهه.

«هل ستعجبهم؟».

«نعم. بالتأكيد. سيقرأونها ويعجبون بها؛ ربَّما ينشرونها في كتاب أيضًا».

يفكر في الموضوع وهو يتخيل أن أحدهم سيقرأ له بعد مائة عام، تعجبه الفكرة، فيواصل الابتسام بحماس. يقترب زياد منه، ويقوم باحتضانه قبل

أن يبتعـد ليُكمل وعيناه تلمعان: «لتعطيني مجموعتَكِ كلَّها. أكتب عليها إهداء لهم كما تفعل، ونضعها ليقرأوها كلَّها». يواصل الابتسام وهو يتخيل الفكرة. يفكر بأنْ يعطيه وقتها عدَّة نسخ ليضعها، حتى تُتاح قراءتها لأكبر عدد من المدرسين الذين سيفتحون الكبسولة، والتلاميذ الذين سيأخذهم الفضول للتعرف إلى والد زميلهم القديم بالمدرسة؛ وربَّما قرأها أولياء أمور الطلاب. تتسارع دقات قلبه، ويشعر بالحماس الشديد.

«اتفقنـا»؛ يقولها له بفرحـة. فيقفز حوله وهو يقـول بصوته الطفولي الجذل: «اتفقنا».

***

«هل فكرتَ ماذا سـتضع في الكبسـولة؟». تقولها سالي صديقة زياد. فينظر لها الأخير بحسمٍ وهو يقول: «نعم».

«أنا أيضًا قررتُ. سـأضع صورتي وحصانًـا مصنوعًا من الصلصال. صنعتُه بالأمس وانتهيتُ منه». يظلُّ زياد ناظرًا لها دون أن ينطق. فتُكمل: «ربَّما وضعتُ خطابًا بخطِّي. سأحكي لهم عن صداقتنا أنا وأنت». فيبتسم زياد بشـغف. «وماذا ستقولي فيه؟». «سأقول لهم أننا أصدقاء منذ الـ kg. وأننا في نفس فريق كرة السلة. سأضع صورةً لنا سويًّا في ملعب المدرسة». يواصلُ زياد الابتسام دون أن يتكلم.

تتنبه سالي لصمته، فتقترب منه وتسأله: «ما بك؟ كنتَ بالأمس متحمسًا!». يـشرد زياد ببصره ويقـول بصوتٍ خافتٍ: «أفكر في اليوم الذي سـتُفتح

فيه الكبسولة. أفكر في فضول الأولاد في ذلك اليوم وهم يستكشفون الكبسولة وما بها».

تستمع له سالي بحماس، فيكمل زياد: «أتمنَّى بشَّدة أن أكونَ موجودًا في ذلك اليوم، أن أرى فرحتهم وهم يستقبلون هدايانا، ويفحصونها. وهم يقرأون خطاباتنا لهم». تُكمل سالي بحماسة مؤيدةً صديقها: «أنا أيضًا أتمنَّى هذا. فكرتُ في هذا كثيرًا بالأمس. ولكن هل تعلم كم سنبلغ من العمر وقتها؟». يجيب زياد على الفور: «سنكون قد تخطينا المائة»؛ يبتسم بعدها، وتبتسم سالي وهما يتخيلان منظرهما بعد مائة عام.

يرنُّ الجرس حولهما معلنًا انتهاء الفسحة. ينظران لبعضهما، وتلمع أعينهما وهما يواصلان الابتسام.

***

كانتْ الكبسولة عبارة عن حجرة كبيرة من الصلب. تشبهُ الأسانسير الكبير. صُنعتْ خصيصًا في المكان الخالي بجوار حجرة الموسيقى، في آخر الممرِّ الطويل للطابق الأرضي من مبنى المدرسة. لها باب ضخم يشبه باب الخزانة السميك.

تمَّ تزيين الممر بالزينة والبالونات الملوَّنة الكبيرة. تجمَّع الطلابُ في ساحة المدرسة؛ ليبدأ الاحتفال بمئوية المدرسة.

تكلمتْ مديرة المدرسة شارحةً ما سيتمُّ، وأن الفكرة تهتمُّ في المقام الأول بالتواصل بين الأجيال. كلام كثير من مدرسين كثيرين، لم يسمع منه زياد سوى القليل. كان مشغولًا بحمل حقيبة قماشيَّة صغيرة تحوي

داخلها ما سيضعه بالكبسولة. يفتحها كل دقائق بحماس لينظر داخلها ويتأكد مما بداخلها. نسخة كتاب أبيه، وصوره التي اختارها، وخطابه الموضوع داخل مظروف ملوَّنٍ أنيق. وكرة السلة التي جعلتْ حقيبتَهُ منتفخة. كانت سالي تقف على بُعدِ خطوات منه، تحمل حقيبتَها بذراعيها الصغيرتين، تلمع عيناها، وتبتسم.

كان وكيل المدرسة يتحدث بحماس، ويطلب من الطلاب أنْ يتقدَّموا في صفوف منتظمةٍ ليضعوا ما معهم داخل الكبسولة. يتقدمون كلُّهم وهم يتكلمون ويضحكون فيما بينهم. يدخلون للكبسولة التي تشبه الغرفة الكبيرة، ويبدأون في وضع هداياهم على الرفوف الكبيرة، في جوانب الكبسولة التي كانتْ معدَّةً لاستقبال كلِّ ما معهم. ببطءٍ تمتلئ الغرفة، ويتراجع التلاميذ في صفوفهم للخلف عائدين لساحة المدرسة.

يظلُّ زياد متأخرًا يتطلع لما يحدث أمامه، يعيد فتح الحقيبة لينظر فيها ربَّما للمرَّة المائة، تخفتُ الحركة قليلًا، ويقلُّ عدد الطلاب المتواجدين حول الكبسولة. يتقدم، وتتقدم معه سالي نحو الباب الكبير المفتوح، ينتظران حتى يخفُّ الزحام، يتقدمان ليدخُلا ويدخل وراءهما تلميذان يضحكان بصوتٍ عالٍ. يتقدَّم زياد وسالي نحو آخر الغرفة المكتظة بالهدايا والحقائب المغلقة، يتخطيان الهدايا والعلب المغلفة بألوان زاهية ويقتربان من نهاية الكبسولة، بعد آخر الرفوف ثمَّة مكان صغير مختفٍ خلف زحام الأشياء. يزيحان ما به من حقائب سريعًا، ويدخلان فيه، يكوِّران جسديهما الصغيرين لكيلا يراهما أحد.

يسمعان صوت آخر الطلاب وهو يتقدم ليضع ما بيده في المكان الخالي بأول الكبسولة. يكتمان أنفاسهما، وهما يُمسكان بأيدي بعضهما بشدَّة. يغمضان أعينهما وصوت المدرس يهتف في التلاميذ بالخارج: «هل من أحد آخر؟ هل انتهى الجميع من وضع ما يحملون؟».

كان الصخب شديدًا، وصوت التلاميذ يعلو بالغناء والضحك. يتقدم المدرس من مدخل الكبسولة لينظر بفخر وسعادة للمكان الممتلئ، يظلُّ متطلعًا فيه لثوانٍ قبل أنْ يُخرجَ من جيبه مظروفًا أبيض صغيرًا، ويضعه على أول رفٍّ أمام الباب. يتراجع بعدها ليقف بين المديرة وباقي المدرسين المتجمعين بالخارج.

يسمع زياد وسالي أصوات الخارج المتداخلة وهما يواصلان كتم أنفاسهما، ويغمضان أعينهما نصف إغماضة. يعلنون بالخارج الانتهاء من وضع الهدايا المسافرة عبر الزمن، يصفق الطلاب كلُّهم بحماس وفرحة. يتقدمون إلى الباب الضخم، يغلقونه، ويحكمون لفَّ المقبض الشبيه بمقابض باب الغواصات.

بالداخل، كان الظلام دامسًا، يخرج زياد من داخل الحقيبة التي يحتضنها كشّافًا كبيرا، يضيئه لينظر لسالي بتوتر: «هل أنتِ خائفة؟». تتلاحق أنفاسها، وعيناها تتسعان. تمدُّ يدَها لتمسكَ بكفِّ زياد الصغير وهي تهزُّ رأسها نفيًا: «سنسافر عبر الزمن، سنكون في استقبال التلاميذ وهم يفتحون الكبسولة، سنرى فرحتهم، وسنُغنِّي معهم». يبتسم زياد وهو يزيح مزيدًا من الحقائب

جانبه ليجلس، ويجلسها جواره. يضع حقيبتُه أرضًا، ويمدُّ يده ليخرج ما بها، يتطلع لصوره وهو يلوِّحُ. يحتضن سالي بذراع وهو يتناول من الداخل كتاب أبيه. ينظر له بحبٍّ ويقوم باحتضانه بذراعه الأخرى.